

التواصل في التراث الشعبي الإنساني وأصدائه حكاية "عصفور الهوى" نموذجاً دراسة تحليلية سيميائية مقارنة

أ. عثمان مجدوبي

أستاذ مساعد - أ. بالدرسة العليا

للأساتذة، ببوزريعة- الجزائر

الكلمات المفتاحية: الحكاية، الأسطورة، المسار السردي، البنية الفاعلية، النظام السردى، نظام الشخص، الأقطاب الدلالية، الأنوار الغرضية، المربع السيميائي، جدول التوثيق، المراتب والوضعيات، الأفعال الأساسية.

Résumé :

A partir du texte modèle proposé dont le titre est (Récit d'un oiseau de la pluie), cette étude a essayé de prouver l'authenticité de ce récit et sa forte relation avec les légendes des peuples anciens de l'orient dont (la belle et la bête).

La motivation de l'âme et de l'amour (psyché et amour) dont l'édition a été réalisé par le célèbre orientaliste « EMILLE DERMENGHEM » dans la Revue Africaine, ce qui nous a permis de trouver d'autres appellations ayant pour titre (Venus et Adonis) et (Eros et Abeskhi) citées dans les littératures romaines et grèques, à travers l'étude de l'évolution historique de l'origine du récit. Le sens du récit quant à lui est lié à l'un des rites agricoles qui annonce le retour de la fertilité et de la croissance à la terre.

توطئة:

تبدو الصورة الحقيقية لهذه الحكاية أكثر دلالة وحضوراً كلما أمعنا النظر في كتابات الفولكلوريين ودارسي الثقافات الشعبية في أنحاء العالم. فقد أظهرت هذه الدراسات ارتباط هذه الحكاية بأساطير الشعوب القديمة وفلسفاتها ووردت في آدابها بتسميات مختلفة منها: "الجميلة والوحش" المعروفة في الآداب العالمية بحافز "النفس والعشق Psyché et Amour".

وقد مكنا البحث في أصولها التاريخية من العثور على روايات شفوية وكتابية شبيهة لها. بعضها رصدها المستشرق المشهور " إميل دار منغم Emile Dermenghem " في المجلة الإفريقية بعنوان "أسطورة النفس والعشق" في فلكلور شمال إفريقيا. استعرض انتشارها في بلدان المغرب العربي وبالأخص الجزائر. وقد عثرنا على عنوانين اثنين: الأول يسمى " المصباح الصغير la petite lampe. والأمير في جلد الثعبان " le prince à la peau de serpent "، والثاني "ابن الغولة " ¹ le fils de la teriel وهي التحولات التي تعتبر صدى كتاب " الحمار الذهبي" للمؤلف الجزائري "لوكيوس أبوليوس المدوري " المنسوب إلى بلدة "مداوروش Madoura" على أعالي نهر مجردة ما بين الجزائر وتونس. وهو من أصل بربري عاش في العهد الروماني وقد ولد حوالي سنة 125م وتوفي بعد سنة 180 للميلاد".²

وعن الأصل اللاتيني صدرت الترجمة الإنجليزية للكتاب وطبع عدة مرات وقام بترجمته إلى اللغة العربية الدكتور علي فهمي خشيم ونشر مرتين بالجماهيرية الليبية. في هذا الكتاب تفصيل لأهم أحداث الأسطورة بعنوان "كيوبيد وبسوكي" موزعة فيما يربو عن الستين صفحة وقد تعذر علينا أخذها لطولها فاخترنا نصا آخر بعنوان "الإله إِرُس والأميرة أبسخي" عثرنا عليه في كتاب "الأسطورة اليونانية" للدكتور "فؤاد جرجي بربرة"³ لغرض مقارنتها بحكاية "عصفور الهوى" باعتبارها ملخصة ومختصرة بشكل يمكن استغلالها بكيفية أفضل. لكن ذلك سوف يكون بعد تحديد هويتها التاريخية وسط خضم من الحضارات الإنسانية المتعاقبة التي حاولت كل واحدة منها نسبها إليها.

ومادامت "أفروديتي" أما لبطل هذه الحكاية الأسطورية فإننا نطرح هذا السؤال بغرض الإثارة. ماهو المهد الأصلي لهذه الأسطورة؟ للإجابة عن هذا السؤال نتتبع التدرج التاريخي لمختلف أسمائها في مختلف الحضارات.

في حضارة الهند اسمها "ماياديهافاني".

وفي حضارة الفرس اسمها "أناهيتا" وأيضاً "الزهرة".

ولدى الآشوريين "أنائيتيس".

ولدى الكنعانيين "عشتار".

وعند الفينيقيين "عشتروت".

وعند الفراعنة "أوزيريس".

ولدى اليونان "أفروديت".

وأما الرومان "فينوس".

واصطلح العرب على تسميتها "الزهرة"⁴.

فهي من وجهة نظر بعض الباحثين شرقية وتحديدًا من أصل فينيقي من صيدا واسمها "عشتروت" وقد أطلق عليها المصريون اسم "الزهرة" وبنوا لها بيتًا في "منف" إبان حكم أحد ملوك مصر الأقدمين "تدراش"⁵. وذكر البعض بأنها كانت تعبد في الجزيرة العربية، وأن صنم "العزى" الذي كان يعبد في "الكعبة هو صنمها"⁶. وكان البابليون أول من قالوا بوجود إله للجمال والحب سموه "تموز". ثم سرت عبادته إلى فينيقيا باسم مغاير "آدون" وتعني "السيد" وحرفت تسميته حين نقل إلى اليونان حيث سموه "آدونيس".

ويؤكد النص الذي بين أيدينا الأصل الشرقي لهذه الأسطورة من خلال ما ورد "في تاريخ الأسرة السادسة عشرة الفرعونية من ربط بين عبادة "أوزيريس" المصري، و"أدونيس" الفينيقي. فقد ذكر مؤرخو "الإسكندرية" القدماء أن الآلهة "إيزيس" قد سافرت إلى جبال لبنان تبحث عن حبيبها "أوزيريس" فوجدت أشلاءه المبعثرة في منطقة جبيل، والمعروف أن "جبيل" كانت مقر عبادة "أدونيس" الفينيقي، وهكذا التقت عبادة الإلهين المصري والفينيقي في منطقة جبيل اللبنانية، وكلا العبادتين من نتاج الشرق، أرض العبادات والأساطير"⁷.

فقد حرصنا على تقديم هذه الصورة المختصرة "لأسطورة فينوس وأدونيس"⁸ لا لكونها هي محور دراستنا بل لأنها في علاقة رحمة مع الحكايتين اللتين نود بمقارنتهما. فحكاية "عصفور الهوى" في تصورنا. إن قدمت دون الرجوع إلى خلفيتها الأسطورية والتاريخية ربما تكون ناقصة الإحاطة بحيثياتها وبجذورها التاريخية، وقد اعتمدنا في دراستها المنهجية التالية:

- دراسة الحكاية المجموعة وتحليلها.
- مقارنتها بالنص المدون الذي سبق ذكره أسطورة "إرس وأبسخي" وذلك عن طريق جداول بيانية.
- استخراج السيمات والعناصر المشتركة بين النصين والتعليق عليها.

ملخص حكاية عصفور الهوى:

1- كان لرجل سبع بنات، عزم على الذهاب إلى السوق فطلب منهن أن يعربن عما يردن من كسوة العيد ليشتريها لهن، فطلبت منه السابعة شراء جبة راقصة. فلم يجدها أبوها إلا عند الغول، اشترط هذا الأخير

مقايضة البنت بالجبة. 2- قبل الأب العرض فزوجها للغول الذي أخبره بأخذها في يوم راعد وممطر. 3- أخبر الأب ابنته بالصفقة فقبلت وانتظرت قدومه حتى اليوم الذي وقف بالباب قائلاً: "أفْكِي الْعَافِيَةَ"، خرجت إليه حاملة النار فخطفها وأخذها إلى بيته. 4- تعود الخروج والدخول في الظلام فلم تر وجهه ولو مرة بعد منعها من تبين وجهه، إلى أن زارت أهلها فجلست مع أخواتها وأقنعنها بضرورة رؤية وجه زوجها. 5- عادت إلى بيتها، وفي الليل دخل عليها ففدنت وصية أخواتها فأشعلت المصباح في وجهه فانقلب على عقبه واختفى عن الأنظار. 6- خرجت في أثره وهي تصيح، عصفور الهوى ارجع، فيرد عليها: "لَهْلِيَاثِيمْ إِذْ لَهَا كِيم" ** وأكملت سيرها فوجدت في طريقها ثلاثة عيون، الوسطى جافة حزنا على عصفور الهوى، ثم وجدت ثلاثة أشجار الدردار الوسطى يابسة حزنا على عصفور الهوى. فازداد ندمها وحزنها عليه، ثم وجدت بائع الجبب، وبائع "تَمَحْرَمِينَ" *** وبائع الأحذية فأخبروها بأن معروضاتهم لعصفور الهوى أعطى العربون عليها لو صبرت لفلة قليلا. فاعترفت بتهورها وندمت علي فعلتها. 7- دخل الغول بيت أمه الغولة فلحقت به زوجته فعاقبتها الغولة بجملة من المطالب الشاقة وتوعدتها بالأكل إن فشلت في تنفيذها، فخافت على نفسها وبكت كثيرا. 8- سمعتها ابنة الغولة فسأعتها على إنجاز مطالب أمها في كل مرة. (مطالب الغولة تمثلت في صنع وسادتين بريش الطيور ثم إعادة الريش إليها مرة أخرى، وتنظيف صحن الدار من أي أثر للغبار ثم إعداد أكلة "قطع وارم" تحرق جوف الغولة دون فمها). 9- نصحت ابنة الغولة البطلة بأن

تطلب من زوجها الغول شراء الحناء وتغمس فيه منديلها عمدا ليتلطح وعندما تخبرها البنت بحالة المنديل الملتطح ترد عليها البطلة بأن تلطح قلبي بالهموم أكبر من تلطح منديلي، وحينها يسمعها زوجها فيأخذها معه. 10- سمع الغول معاناة وهموم زوجته فغافل أمه ليلا وحملها على ظهره وهرب بها راجعا إلى بيته فمر في طريقه بتاجر الأحذية وتاجر المناديل وتاجر الجيب فأخذ جميع معروضاتهم. 11- بعودة الزوجين اخضرت شجرة الدردار اليابسة وسالت مياه العين الجافة واستمرت الحياة.

روتها الراوية أمزال نواراة باللهجة القبائلية وترجمناها إلى العربية

دراسة الحكاية

أقسام الحكاية

1- الاستهلال: استهلت الراوية⁹ حكايتها بتلك العبارة المألوفة في مجتمع القص وهي: "أماشاهو" وتقابلها في العربية عبارة "حاجيتك". والراوية هذه لها أسلوب روائي قار بحيث تلتزم بقواعد الحكى ولا تحيد عنها سواء أكانت مناسبة الحكى بطلب من أحد أم من تلقاء نفسها. ثم يردف الحاضرون عبارة الثناء على الراوية نظير تليبيتها دعوتهم وهي قولهم "أَوَالَيْمَ أَذْلَهُوْ أَمْ التَّفَاحُ اللَّحْلُوْ ****".

2- المسار السردى للوضعيتين الافتتاحية والختامية:

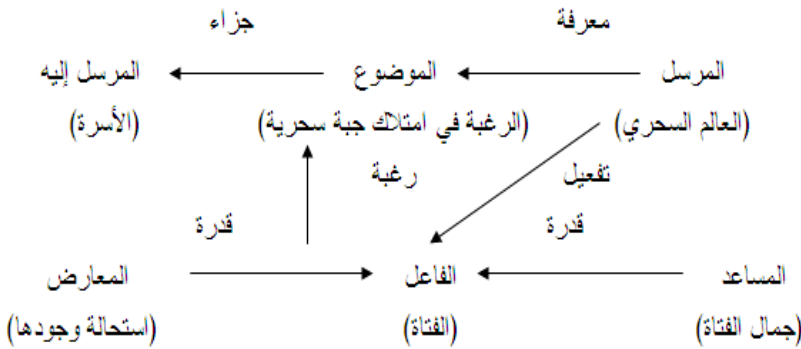
الوضعية الافتتاحية: تروي الحكاية قصة فتاة جميلة تعلق قلبها بامتلاك شيء سحري يتمثل في جبة راقصة غير أن فقدانها في السوق مهد للغول أن يدخل سياق الأحداث باعتباره مالكا لهذا النوع من الجيب. ويقوم الدافع النفسي في الفتاة بقبول الارتباط بالكائن الغريب من أجل

الظفر بالجبة. بيد أن متن الحكاية يبين مخالفة الفتاة لبنود الارتباط الأمر الذي جلب لها متاعب جمة.

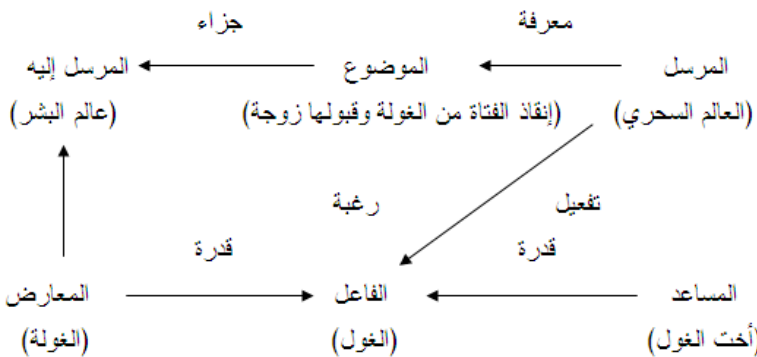
الوضعية الختامية: تصور الوضعية الختامية اتصال الفتاة مرة أخرى بالزوج المختفي بعد نجاحها في تخطي جملة الصعاب التي فرضتها عليها أم الزوج (الغولة) وعودة الزوجين من جديد للعيش معا في كنف المودة والمحبة في أجواء العالم السحري الجميل.

- البنية الفاعلية للوضعيتين:

أ- الوضعية الافتتاحية :



ب- الوضعية الختامية:



المقاطع	أصناف الوظائف	الوظائف	ملخص الجمل السردية
1-	اضطراب تحول	نقص خروج استخبار أخبار إصلاح حل	شعرت الفتاة بحاجتها إلى جبة سحرية راقصة خرج أبوها لاقتنائها فلم يجدها إلا عند الغول استفسر الغول الرجل عن تكون طالبة الجبة السحرية أخبر أبو الفتاة الغول بأن طالبة الجبة الراقصة ابنته تحصلت الفتاة على الجبة السحرية الراقصة قبلت الفتاة الزواج من الغول مقابل الجبة
2-	اضطراب تحول	نقص منع استخبار أخبار دعاوي كاذبة تواطؤ انتهاك(خرق)	شعرت الفتاة أنها زوجة لمخلوق لا تراه منع الزوج عن زوجته الإطلاع على خلقته استطلعت الأخوات أختهن عن حقيقة خلقه زوجها أفادت الفتاة أخواتها بمعلومات تخص زوجها وكشفت لهن عما كانت تتعم به من حياة مرفهة معه. ادعت الأخوات حبهن لأختهن فنصحنها بضرورة كشف حقيقة الزوج حرصا على مصلحتها. صدقت الفتاة كلام أخواتها وتبنت فكرتهن خرقت الفتاة حظر زوجها وأشعلت المصباح
3-	اضطراب تحول حل	نأي(رحيل) اكتشاف البطل المزيف عقاب	غضب الزوج على فعلة زوجته فغادر البيت فتحولت حياتها إلى جحيم اكتشفت الفتاة حقيقة زيف أخواتها ومكرهن عاقب الزوج زوجته على خرق الممنوع وظلت هائمة تبحث عنه
4-	اضطراب تحول حل	نقص انطلاق تنقل بين مملكتين مهمة صعبة نجدة مهمة ناجزة إصلاح	شعرت الفتاة بالندم على فراق حبيبها قررت الفتاة ملاحقة زوجها للبحث عنه لحققت الفتاة زوجها إلى مملكة أمه الغولة أجبرت الغولة الفتاة على إنجاز مهام صعبة عجزت الفتاة على الوفاء بمطالب الغولة فأنجذتها ابنتها تمكنت الفتاة من تحقيق مطالب الغولة نجحت الفتاة في الوصول إلى زوجها

عبرت البنية الأولى عن رغبة الفتاة الجميلة في امتلاك شيء سحري أفضى بها إلى الارتباط بكائن غريب لا ينتمي إلى نظامها سوف يؤدي هذا الارتباط إلى تعارض طبيعة نظامي العالمين: "العالم السحري" الذي ينتمي إليه الغول، "والعالم البشري" موطن الفتاة. وينتج عنه غضب الكائنات السحرية أو العالم الآخر.

وعبرت البنية الثانية عن قيام الغول بإنقاذ زوجته من خطر أمه الغولة بعد التحاقها به في عالمه وخوضها هناك جملة من الاختبارات التي يعد النجاح فيها شرطاً لنيل رضا زوجها، والاندماج معه نهائياً في أجواء العالم السحري. وقد أبدت ندماً وحسرة على ما قامت به حين أفشت سر العلاقة التي جمعتها بكشفها طبيعة خلقته. ويتزامن هذا مع رضا العالم السحري بهذا الزواج الشرعي من خلال عودة الحياة إلى الطبيعة الحزينة على فراق الحبيين.

4- النظام السردى لمتن الحكاية:

ينظم المسار السردى لهذه الحكاية وفق العلاقات التي يوضحها الجدول التالي:

يتكون متن الحكاية من أربعة مقاطع سردية متتابعة، احتوى كل واحد منها على ثلاثة أصناف وظيفية هي: اضطراب، تحول، حل.

تشعر الفتاة في المقطع الأول بحاجة إلى جبة سحرية راقصة،

يخرج أبوها مضطراً للبحث عنها نزولاً عند رغبة ابنته فلم يجدها إلا

عند الغول. هذه الشخصية الغريبة تتمسك بالجبة وترفض بيعها إلا

بشرط الزواج من الفتاة الطالبة لها . ولشدة تعلق الفتاة بها قبلت

الارتباط بهذا الزوج، وعاشت معه حياة سعيدة إلا أنها لم تر وجهه.

أما المقطع الثاني فيعتبر الجزء المحفز لأحداث الحكاية بظهور الأخوات كطرف مؤثر في صلبها. تتعرف الأخوات على أخلاق الزوج وأفضاله فتدب الغيرة في قلوبهن ويتقنعن بقناع الخداع والمكر فيسدين النصيحة لأختهن قصد رؤية الزوج الغريب. تتساق الفتاة الساذجة وراء كيد أخواتها وتتواطأ معهن وتقوم بإشعال المصباح وتطلع على محياه فتقع ضحية فضولها. وتتفصم تلك العلاقة السرية التي لم تصبر على صيانتها. وهذه المرحلة برأي غريماس بمثابة الاختبار الرئيسي. وهو الفترة الحاسمة في النص والأكثر حركية غالبا. إذ يصارع فيها البطل مباشرة القوى المعادية له وينتهي إلى امتلاك بغية بحثه¹⁰.

وفي المقطع الثالث تعيش الفتاة أحلك لحظات حياتها مضطربة نادمة على فعلتها فاقدة حبيبها الذي غادرها جراء خرقها الحظر حيث عاقبها بأن تركها وحدها هائمة على وجهها حائرة من أمرها.

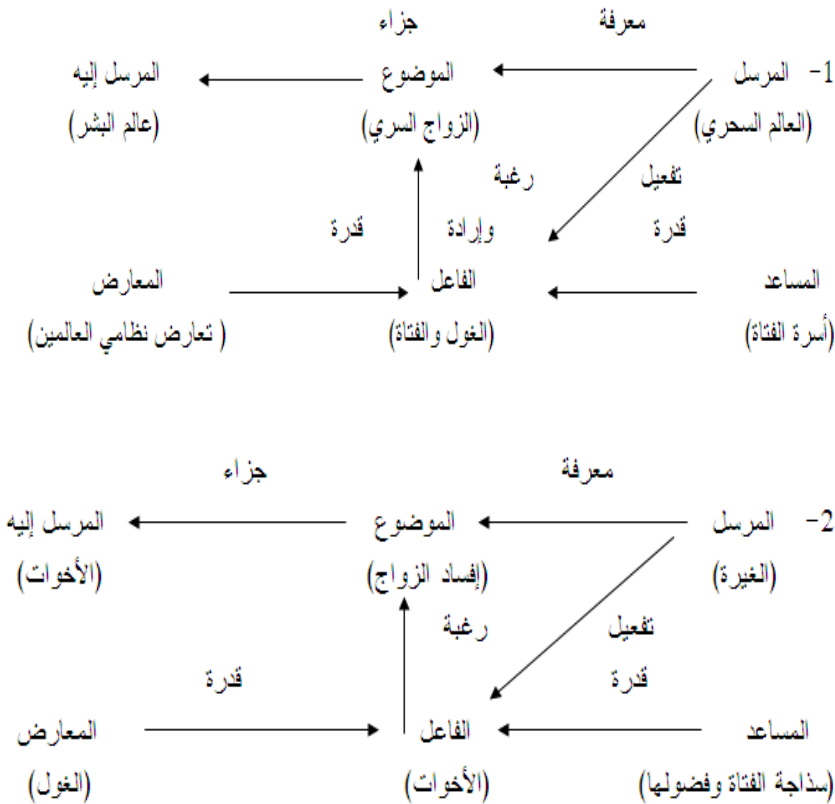
وفي المقطع الرابع تصوير لقصة خروج الفتاة للبحث عن السعادة المفقودة وفي طريقها تخوض سلسلة من الاختبارات العسيرة التي فرضتها عليها حماتها (أم الزوج) كشرط للاندماج في نظام العالم السحري، وكنتيجة لإفشاء سر العلاقة التي كانت بينها وبين زوجها. وكانت الغولة تتربص بها في كل مرة، وتنتظر عجزها عن تحقيق مطلب من مطالبها لتكون ذريعة لأكلها. وبفضل الدور الوسيط لابنة الغولة تمكنت الفتاة من تجاوز محنتها والنجاح في الاختبارات. ورغم ذلك لم تكسب ثقة الغولة فخاف الغول على مصير زوجته الصغيرة

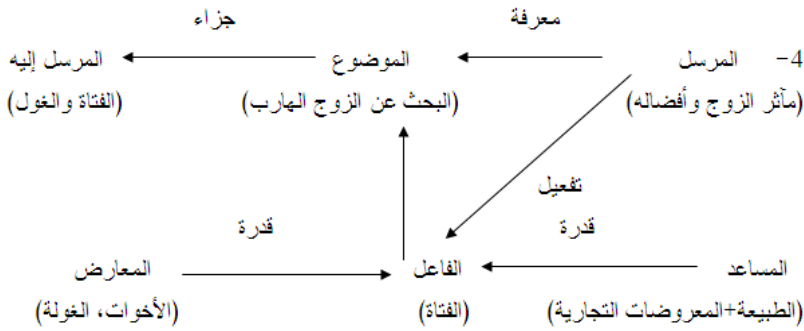
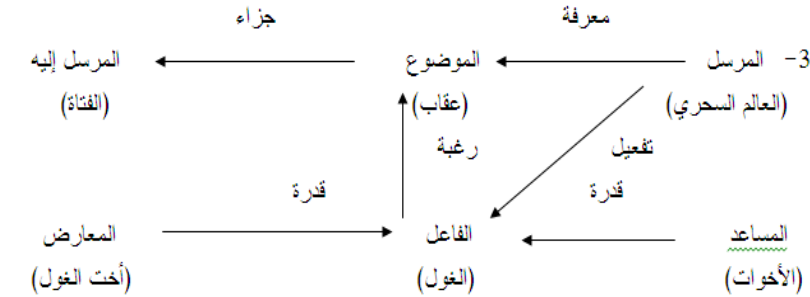
وأشفق عليها وفر بها عائداً إلى قصره في أجواء العالم السحري الجميل.

وقد اتخذ المسار السردى لهذه الحكاية النموذج الخطي التالي:

- (1) - وف < ض < ت < ح
- (2) - ض < ت < ح
- (3) - ض < ت < ح
- (4) - ض < ت < ح < ون

5- البنية الفاعلية لمتن الحكاية:





يتمثل المرسل في البنية الفاعلية الأولى في العالم الآخر الذي لاحظ سوء سمعة الفتاة وغرورها بنفسها بطلبها أشياء غير معقولة (جبة راقصة) لا تمت بصلة إلى عالمها فكان لابد لها من تذوق مرارة طيشها. أو عز هذا العالم إلى الغول للتزوج منها وحرمانها من رؤيته على غير عادة أزواج أخواتها.

ويقوم المرسل في البنية الثانية الذي يتمثل في الغيرة بدور محفز للفاعل للقيام بالفعل وذلك عقب إلمام الأخوات بفضائل زوج أختهن الذي أسعدها ووفر لها كل ما لذ وطاب. يثير هذا الخبر حفيظة الأخوات وأصبن بخيبة أمل كبيرة كونهن لا ينعمن بما تنعم به أختهن

فسعين لإفساد طبيعة العلاقة الطيبة بين الزوجين لتعيش أختهن بعد ذلك أحلك أيامها.

وفي البنية الثالثة يتحدد المرسل في العالم السحري الذي لاحظ السلوك النزق للفتاة بخرقها ميثاقا سريا وأوعز إلى الغول بضرورة تأديبها جزاء فعلتها حتى تقلع عن الأفكار السلبية التي استولت على عقلها وتلقينها دروسا في الأخلاق الزوجية التي تعتمد على الصبر والكتمان والوفاء. لقد أعماها فضولها فنقضت عهدا هو سر سعادتها فكان لابد من معاقبتها حتى تدرك حجم خطئها وتسترد رشدها وتكون أهلا لحفظ الأمانة كشرط لكسب ود زوجها والاندماج معه في نظام العالم السحري الجميل.

وتقوم مآثر الزوج الهارب وأفضاله على زوجته بدور المرسل الذي حفز الفتاة من أجل البحث عنه . يدفعها في ذلك تأنيب ضميرها بوقوعها في شرك الأخوات. سوف تلقى خلال مرحلة البحث عن زوجها صعاب كثيرة ومنعرجات حاسمة وخاصة في بيت حماتها. ولكن بفضل صبرها وشفقة ابنة الغولة عليها تمكنت من القيام بالرسالة أحسن قيام وكوفئت على ذلك من قبل المرسل الذي رد لها الاعتبار وأشفق عليها واتصل بها مرة أخرى اتصالا غير مفارق.

6- نظام الشخص في الحكاية:

يمكن تحديد دور الشخصيات القائمة بالفعل في هذه الحكاية في نوعين رئيسيين:

- يتمثل النوع الأول في الشخوص المساعدة للفتاة من أجل تحقيق بغيتها، منها شخصية الغول وأخته اللذان حافظا للبنات حياتها وساعداها على الاندماج في نظام العالم السحري.

- أما النوع الثاني فيتمثل في الشخصيات التي اعترضت حلم الفتاة ورامت هلاكها، وزجت بها في مواقف صعبة كما يدل على ذلك موقف الأخوات اللواتي رمينها لتقع فريسة في قبضة الغولة الناقمة عليها.

توضح الحكاية أن المعشوقين من عالمين متناقضين، فالفتاة تنتمي إلى العالم البشري، بينما ينتمي الغول إلى العالم السحري المجهول، يكمن التناقض بين المعشوقين أيضا في كون الزوج ذكرا من طبيعة سحرية عشق (فتاة) أنثى من العالم البشري المناقض لعالمه الذي لا يقبل مثل هذه الزيجات ويعتبر المقدم عليها خارقا لنظامه. ومن جهة الفتاة فإنها عشقته أيضا دون أن تراه رغم علمها بمصدر كينونته.

فالملاحظ أن علاقة التقابل بين الذكورة والأنوثة تغلبت على محور التضاد بين عالمي الكائنين، واتجهت نحو التوحد بينهما في إطار علاقة تحكمها السرية التامة من خلال منع الزوج عن زوجته رؤية خلقته. ولكن "لما انكشف الأمر عانى العشيقان مرارة الفراق وآلام من ينقض سنة الحياة الاجتماعية التي تقضي بتكافؤ الزوجين من حيث انتماء كل منهما لنفس النوع. ولكن بفضل شجاعتهم وانسجام سلوكهما مع الطبيعة نجحا في تخطي العقبة. واجتمع شملهما في النهاية، في نطاق العالم السحري الجميل"¹¹.

7- الأقطاب الدلالية:

تتوفر الحكاية على مجموعة من المعالم المتألفة المبنوثة في ثنايا المتن، والتي من خلال ملامستها واستقراءها تتضح لنا البنية العميقة للحكاية وتركيباتها الداخلية.

تبدأ الحكاية بعرض الإطار العام لقيام علاقة زواج بين كائنين ليسا من طبيعة واحدة ويختلفان في المصدر الذي انبثق كل منهما وفي القيمة الدلالية التي تحملها مرجعية كل منهما إلى اختلاف المصير الذي يحدد مآل كل منهما.

فيما يخص القطب الدلالي المحدد لطبيعة الكائنين، تقدم الحكاية الغول ككائن سحري غريب ينتمي إلى العالم الآخر الذي لا يحده مجال فضائي محسوس والفتاة ككائن ذي طبيعة بشرية تنتمي إلى العالم الإنسي المعلوم.

ويحدد القطب الدلالي الثاني المنشأ الأصلي لهذين الكائنين، فيمثل العالم الآخر المصدر الذي انبثق منه الغول (عصفور الهوى) وهو إما أن يكون من طبيعة نارية مثلما هو أصل الجن أو من طبيعة نورانية فيكون ملكا. ولكن من خلال القرائن التي بين أيدينا والتي كنا قد بينها أثناء تقديم إطار الحكاية يتبين أن الغول في هذه الحكاية هو رمز للآله "إرس" في الأسطورة اليونانية. وعليه فإن أصله ماء (البحر) المصدر الذي انبثقت منه آلهة الجمال السماوي "أفروديتي" وهي الغولة في هذه الحكاية. ومن هنا يمكن رصد القطب الدلالي الذي يبين قيمة كل كائن، فبحكم أصل الانبثاق نجد الغول في مصاف الآلهة التي تستجمع صفات القداسة /والعظمة /والجلال /والكمال /والنبل. وهي

صفات الكائنات العلوية. في حين تكمن قيمة الفتاة ذات المنشأ الأرضي في الحقارة/ والوضاعة/ والدناءة/ كصفات ملازمة للعالم البشري. ويكشف خطاب الحكاية أن إصرار الفتاة على اللحاق بزوجها يبين مدى تعلقها بالحياة الخالدة في العالم السحري وفرارها من الفناء الذي يلزم عالمها الأرضي.

سوف نقوم بتجميع الصور الدلالية المنبثقة عن الأقطاب السابقة ضمن الثنائيات التالية:

عالم علوي/عالم سفلي - آلهة/بشر - قداسة/وضاعة - النبل/الحقارة - العظمة والجلال/ الدناءة - الخلود/الفناء - الماء أو النور/التراب. تلتقي هذه الصور الثنائية حول قطب دلالي يحيل إلى الكينونة والقيمة. يتميز كل ماهو من العالم الآخر بالثبات الأزلي وبعلو الهمة وسمو المكانة ويتميز ما هو أرضي بالآيل إلى الفناء والزوال وبالذل والصغار.

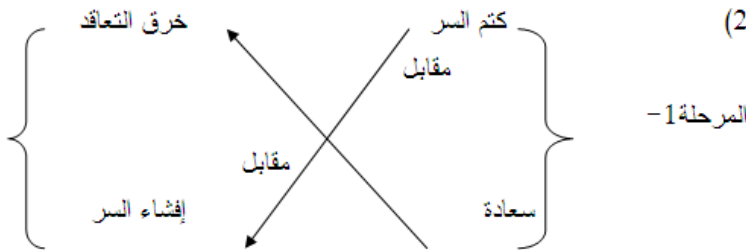
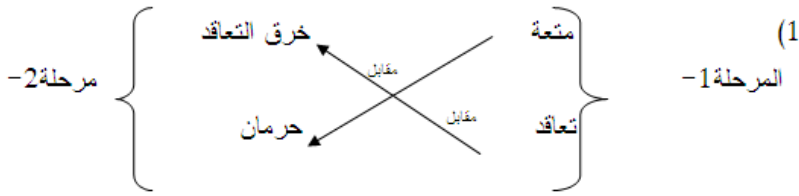
وإلى جانب هذه الصور الدلالية نجد معانم أخرى تنتظم أيضا وفق مقولات ثنائية مستوحاة من البنية العميقة للحكاية وقد وردت على الشكل التالي:

سيادة/خضوع - خير/شر - صدق/كذب - طيبة/حسد وغيره - حب/كراهية - سر/فضول. هذه الصور الثنائية يمكن حصرها في قطبين دلاليين هما: القطب الديني الأخلاقي، والقطب النفسي الاجتماعي.

يخص القطب الأول العلاقة بين كائن علوي ينتمي إلى عالم سحري يملك القوة والسلطة والسيادة. وكائن بشري دنيوي ضعيف خاضع يصدر الأول أوامره للثاني فيخضع له وينفذها ليتطهر من الرذيلة ويتحلى بالفضيلة ويتجلى ذلك من خلال منع الغول على زوجته الاطلاع على حقيقته وعدم تصديق أخواتها. غير أن الطرف الثاني يركب حماقته فيثور على ما كان أصلا له خارقا العهد الذي ضربه على نفسه باحترامه مرتكبا ما يمكن تسميته (حماقة أو تهور أو خيانة). وأما القطب الاجتماعي النفسي فيصور جماع علاقات الشخصيات بعضها ببعض. وفي المقام الأول نجد موقف الأخوات إزاء أختهن فقد كان ظاهر خطابهن يتضمن نصحا بينما باطنه يضرمر شرا جوهره الحسد والغيرة على مقام أختهن لقطع الاتصال الحادث بين الحبيين. إذ أن نفس كل واحدة منهن تود لو ظفرت هي بهذا الزوج السعيد ليوفر لها ما لذ وطاب من رغد العيش. إن هذا النصح المغلف بالخبث يكشف حقيقة سوء جوهر السريرة النفسية للأخوات، ويعكس بالمقابل مدى تهور الفتاة وسذاجتها. وكأن الحكاية تخلص إلى القول: إلى أن المرء ينال حظا من السعادة بمقدار ما يتحلى بالسر والصبر والصدق.

8- المربع السيميائي:

يمكن تمثيل البنية الدلالية العميقة لهذه الحكاية بالمربعين السيميائيين التاليين:



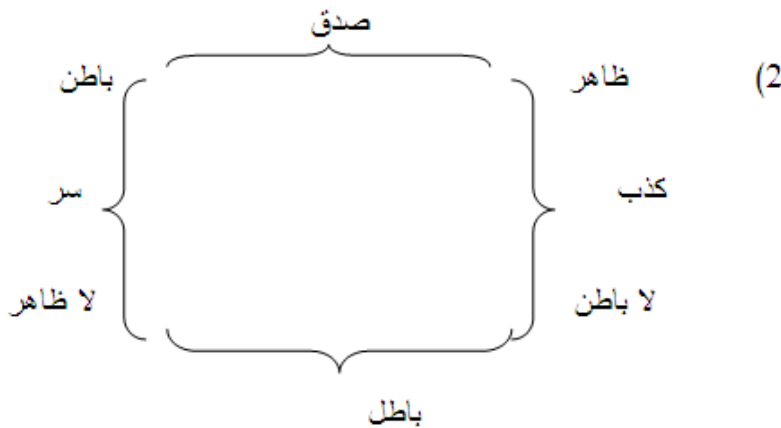
الأدوار الغرضية:

الفتاة: قدمت الحكاية الفتاة على أنها قبلت الارتباط بكائن غريب ينتمي إلى العالم الآخر مقابل انتشالها من وضعها الصعب والانتقال إلى حياة رغيدة مرفهة تحلم بها كل فتاة في مثل سنها. لكن مقابل ذلك اشترط عليها مقابل هذه الحياة المترفة احترام التعاقب الذي يحظر عليها رؤية وجهه، تلتزم الفتاة بهذا التعاقب في البداية فيمتنعها زوجها وتعيش معه حياة هنيئة لا ينقصها شيء.

الأخوات: يصل نبأ سعادة أختهن الصغرى مع الغول فتتحرك فيهن دوافع الغيرة فيقابلن بين وضعهن مع أزواجهن وما تنعم به أختهن مع هذا الزوج الغريب فيجدن البون شاسعا بين الحياتين فيتفقن على فعل أي شيء ينهي حياة أختهن وينتهي الأمر بنصحها بضرورة التعرف على وجه زوجها للتأكد إن كان بشرا سويا أو وحشا مهلكا. تأخذ الفتاة كلام أخواتها مأخذ الجد وتتصرف بتهور فتفقد مجدها.

الغول: شخصية مجهولة متحرر من قيود أمه الغولة، متهور مثل الفتاة التي عشقها يقرر الزواج بها- على الرغم من أنها من عالم البشر- لفرط جمالها وتعلقه بها، ينصحها بكنم سر العلاقة التي تجمع بينهما ولا تحاول تبين ملامح وجهه مقابل إسعادها وتوفير كل ما لذ وطاب لها. يلتزم الغول بالعقد ويبادلها حبا صادقا لا مثيل له مبرهنا على نقاء وطهر مبادئ كائنات العالم السحري الذي ينتمي إليه. تتدخل أخوات الفتاة في الشؤون الخاصة بها فتنصاع لهن ويدفعها فضولها إلى خرق التعاقد ومحاولة كشف السر الذي منعها زوجها من الإطلاع عليه فينتج عنه أضرار تمس حياة الزوجين. يقرر الغول معاقبة الزوجة نظير خرقها شرط التحريم فتقع فريسة بين أيدي أمه الغولة فتكلفها بما لا تطيق فيسوء حالها ويتردى وضعها وتفقد كل آمالها في استعادة ما فقدته.

ومن وجهة نظر الصدق والكذب يمكن توضيح العلاقة بين الزوجين من خلال المربع السيميائي التالي:



على صعيد الفتاة تبدي موافقتها على تزوج الغول، هذه الشخصية التي لم تكن زوجا مثل بقية الأزواج، ولكنه في المقابل يحقق لها ما لم تكن تحلم به، فمن هذه الناحية فإن الفتاة تود لو تمسك بناصية هذا الزوج باحترامها شرط التحريم حتى يسبغ أفضاله عليها. فالعلاقة الظاهرية من وجهة نظر هذه تبدو إيجابية على صعيد التجلي، لكنها في واقع نفسها لا تريد أن تبقى زوجة لزوج تجهل شكله وما هيته، وهو ما أدى بها إلى خرق الحظر بإشعال المصباح، وهذا يفسر سلبية العلاقة على الصعيد الباطني، أي أن الفتاة ارتبطت بالغول ظاهريا لا باطنيا أي (ظاهر + لا باطن) وهي علاقة بمنزلة "الكذب".

لما أخبرت الفتاة أخواتها بحقيقة الزوج أشرن عليها بأن تحتاط للأمر، ففعل الزوج يكون وحشا مفترسا يبطن لها سوءا، وابتداء من هذه اللحظة تتأثر بكلامهن وتقرر انفصالها عن زوجها حتى يبدو لها وجهه الحقيقي أي أنها الآن أصبحت بائعة عنه (لا باطن + لا ظاهر) أي أن العلاقة التي تربطها به علاقة "باطلة".

وبخصوص الغول فإنه حين أقدم على خطبة الفتاة لم يكشف لها عن طبيعته بل اتفق مع أبيها أن يأتي لأخذها في ظروف خاصة وفي وقت معلوم (يوم راعد، ممطر، بارد، ليلا). ولم يكشف عن سبب ارتباطه بمخلوقة لا تنتمي إلى عالمه بل جعل ذلك أمرا خفيا مؤجلا إلى حين لكي يختبر قدرة الفتاة على الصبر والطاعة. وعليه فإن علاقته هذه من قبيل (لا ظاهر + باطن) والتي تتضمن في واقع أمرها (السر). هذا السر يتحقق عندما تجتاز الفتاة اختبارات الغولة وتعرف عندها حقيقة الزوج الذي أسعدها فتندم على فعلتها ندما لا سبيل إلى تكرار مثلها،

عندئذ يشفق عليها زوجها من أمه الغولة فيعقد معها من جديد ويسافر بها إلى عالم الأحلام السحري، وهنا يقبل كل من الزوجين غيره قبولا صادقا (أي ظاهر + باطن) وهي علاقة بمنزلة الصدق. وهي الوجوه التي تتركب عليها مبنى الحكاية.

ملخص أسطورة إرس و أبسخي:

لم يكن "إرس" يحترم أحدا، ولا والدته بل مابرح يصوب إليها سهامه النافذة الناعمة، وكم من مرة اضطرت إلى ضربه وتجريده من جعبته وأجنحته، بيد أنه أسدى إليها أكبر الخدمات، وآزرها في مشاريعها خير مؤازرة، ورافقها دوما وسهل لها المهمات، ولم ينج هو نفسه من أسهم الوجد، وقد صوبها إلى الجميع حتى إلى ذاته، فوقع في غرام الأميرة أبسخي.

ولفرط جمال الأميرة شادوا لها هيكلًا، فغارت منها آلهة الجمال، ووكلت إلى ابنها إرس أمر معاقبتها، وأبلغت أباه نبا رهيبا يحل به وبمملكته، ما لم يعرض ابنته لهول هائل، في قمة الجبل المجاور للمدينة. فصعدت الفتاة إلى قمة الجبل، وهي تبكي شبابها، وواكبتها الأميرات والوصيفات بعض الطريق يلطمن ويندبن عليها، وبقيت هناك تتوقع أسوأ المصائر، وترتعد فرائصها من مقدم الوحش الرهيب. فلما جن الظلام إذ بنسيم عليل ناعم نسيم "زيفرس" يحملها برفق على ساعديه ويطير بها إلى قصر بديع وهناك ألقيت على فراش وثير. وما عثم القصر حتى أحست إلى جانبها بشخص في منتهى اللطف يلاعبها ويداعبها فأنساها كل همومها. ولما أنست إليه طلب منها الامتناع عن تبين شخصه والإطلاع على صفات محياه.

لبثت الفتاة تتردد إلى قمة الجبل وتنقل من هناك إلى قصرها وتعيش فيه بأتم السعادة. فحرك الفضول قلوب أخواتها وصديقاتها فأشرن عليها أن تستجلي الأمر وتتبين ملامح الإله الذي أحبها وصور لها بصورة وحش مخيف. فأخذت قنديلا وقدمته من وجهه وهو نائم إلى جانبها، وإذا بمحيا ساحر فتان لا أبهى ولا أروع. فأخذت بذلك المنظر الخلاب وتقدمت بالقنديل من الحبيب المعبود الذي وقفت على أمره أخيرا. وبينما هي تتأمل تلك الملامح الأخاذة وقعت نقطة على كتف إرس الإله المعبود، فارتعش وتنبه من سباته العميق ونظر إلى حبيبته بحزن، وتوارى عن أبصارها هو والقصر وفتنته وبقيت الأميرة على صخرة صماء في عزلة موحشة. وشاءت لفرط غمها أن تتحرر، فألقت بنفسها في نهر قريب. لكن المياه حملتها من ضفة إلى ضفة سليمة معافاة.

وأبلغت الشهرة الطائرة أفروديتي أن ابنها الصغير مريض حزين، فأسته وعالجته وسألته عن سبب حالته فاعترف لها بكل شيء. فأنحت عليه باللائمة وأنزلت بالأميرة محنا لا تحصى تغلبت عليها كلها بمؤازرة خفية من إله الحب. وفي نهاية المطاف، وعدت أفروديتي أبسخي أنها تعيد إليها حبها المفقود إذا انحدرت إلى الجحيم وجاءتها من عند "برسفوني" بعلبة زينة قدمتها لها آلهة الجحيم. وعندما أخذت الأميرة العلبة حركها الفضول في طريق العودة وفتحت العلبة فتطاير منها دخان كريحه غشى جسمها البض المضاهي بياض السيمور اسوداد داكن. ولم تستعد بياضه الزنقي إلا بأعجوبة من " زفس"، وقد استعطفه الحب لحبيبته فأعاد نقاءها وصفاءها وآتاها الخلود. وزفت

لحبيبها في حفاوة بالغة، واشتركت في الاحتفال أفروديتي نفسها بعد أن أسفر سخطها عن رضا واستحال كرهها إلى حب.

نقلا عن كتاب "الأسطورة اليونانية" للدكتور فؤاد

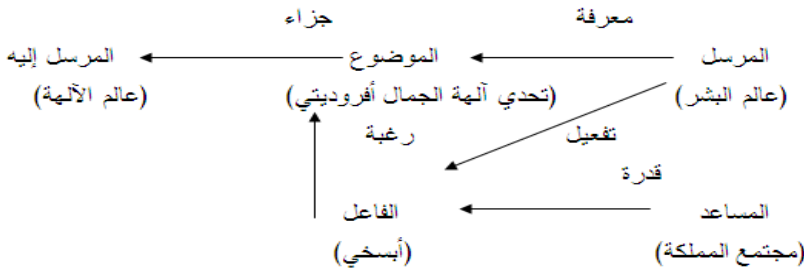
جرجي بر بارة ص171.

دراسة الأسطورة:

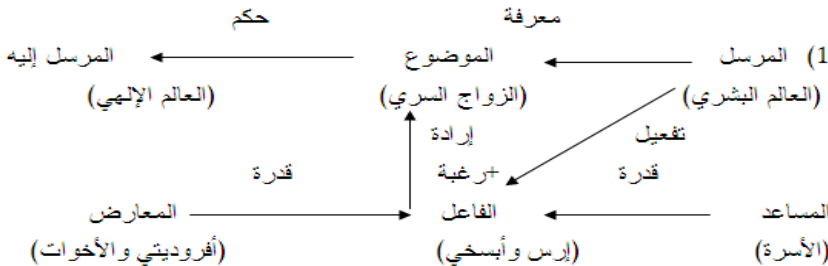
سوف نقصر مجال الدراسة على استخراج البنيات الفاعلية لهذه الأسطورة نقاديا للإطالة. أما العناصر الأخرى فسنقوم بدراستها عن طريق الجداول البيانية، وقد تجنبنا تكرار مراحل دراسة العناصر الأخرى باعتبار الحكايتين حكاية واحدة ولا جدوى من وراء ذلك.

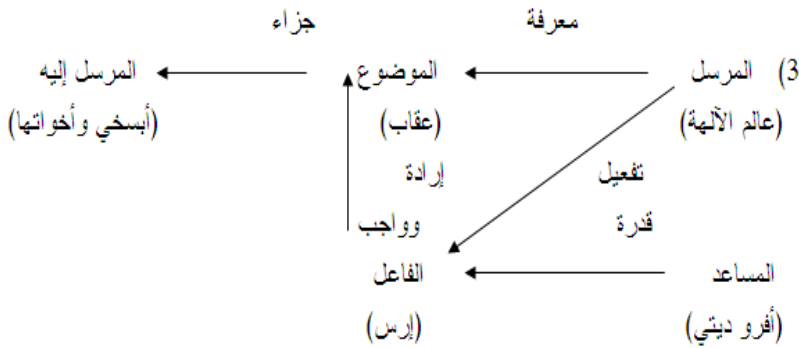
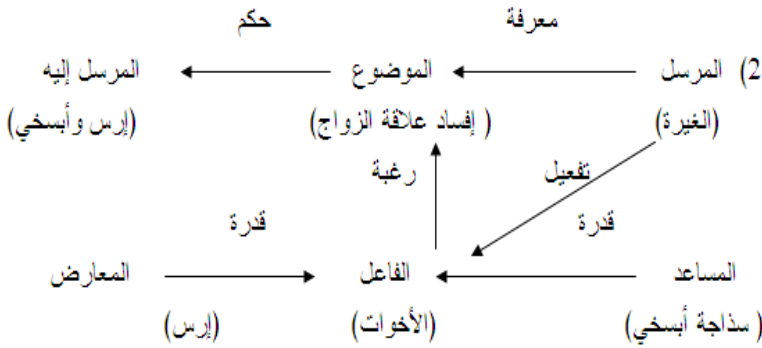
البنيات الفاعلية:

- الوضعية الافتتاحية:

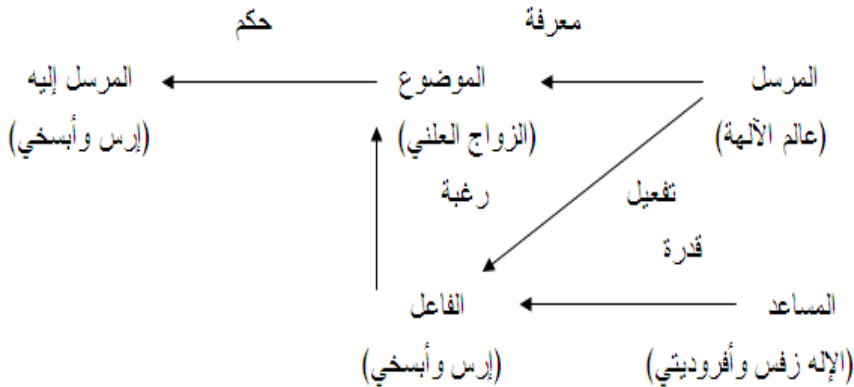


- المتن:



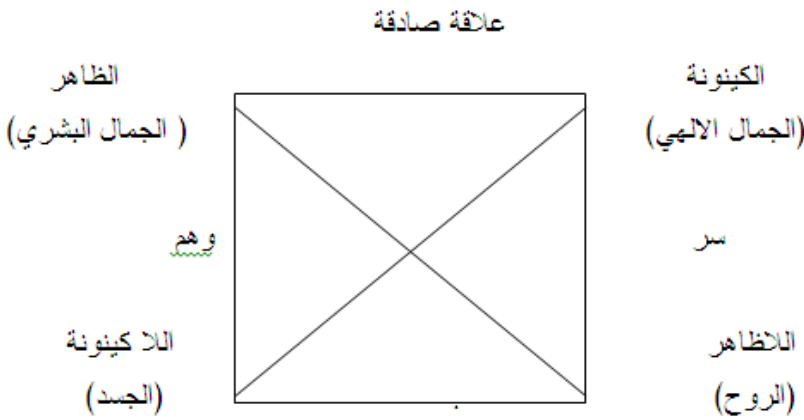


الوضعية الختامية:



البنية الدلالية العميقة:

يكشف المربع السيميائي أدناه المحاور الدلالية العميقة التي أنبتت عليها الأسطورة.



عبرت هذه الأسطورة عن محورين دلاليين متناقضين هما محور "السر" ومحور "الوهم" فربطت بين روح الكائنات الإلهية وجمالها باعتبارها سرا كامنا، بينما ربطت بين الجمال البشري والجسد باعتباره حقيقة وهمية لا يمكن خلوده في الحياة، وهذه فكرة فلسفية كانت موجودة قديما وقد عبرت عنها العديد من الثقافات الشعبية.

الجدول:

1- جدول التوثيق:

المؤلف الموطن	الراوي أو المصدر	سنه	ثقاف ته	جنسه	الموثق	اللغة أو اللهجة	تاريخ التوثيق	المكان
الأسطورة اليونانية	فؤاد جرجي بر بارة دمشق نقلا عن مصادر يونانية		باحث مؤلف	ذكر	فؤاد جرجي بر بارة	اللاتينية ترجمت إلى العربية	1966 حسب سنة طبع الكتاب	دمشق
الحكاية الخرافية من بني ورثيلان الجزائر	أزال نواره رواية شفوية قرية (كريمة)	54 سنة	أمية	أنثى	الباحث	اللهجة القبائلية	01-01- 1999	(كريمة) (من بني ورثيلا ن

الجدول (2)

جدول الشخصيات:

الشخصيات الموطن	البطل	البطلة	المكمل (1)	المكمل (2)	المكمل (3)	المكمل (4)	المكمل (5)	النظير (1)	النظير (2)
اليونان	إله الحب إرس	الأميرة أبسخي	آلهة الجمال أفرو ديتي	والد الأميرة	آلهة الجحيم بر سفوني	إله النسيم زيفرس	إله الخلود زفس	أفرو ديتي	الأخوات والصديقات
بني ورثيلان (الجزائر)	الغول	الفتاة (فلقة)	والد الفتاة	ابنة الغولة	/	/	/	الأخوات	الغولة

الجدول (3): جدول العناصر المشكلة للوسط:

العنصر موطن الحكاية	الجغرافي	الطبيعي	الإنسي	الحيواني	الثقافي والصناعي
اليونان	اليونان	الجبل، الصخرة الصماء، النهر، الجحيم، النسيم	مجتمع المملكة	الطيور	القصر البديع الفراش الوثير القنديل علبة الزينة
منطقة بني ورثيلان (الجزائر)	قرية كريمة	الخلاء العيون الأشجار الريح المطر	مجتمع الحكاية السوق	الطيور	الجبة الراقصة الأحذية المناديل الحريرية وسائد بريش الطيور السكة

الجدول (4): جدول المراتب والوضعيات الإنسانية:

الوضعيات والمراتب موطن الحكاية	الأساسية	الوصولية	الحكم الرئيسي	مصير الكائن
اليونان	سلطة إلهية تنفيذ قوانين السماء	منافسة آلهة الجمال أفروديتي خرق قوانين السماء	آلهة الجمال السمائي أفروديتي	انضمام أبسخي لعالم الآلهة الخلود
منطقة بني ورثيلان (الجزائر)	سلطة سحرية التزين والظهور في هيئة جميلة	التجارة في السوق قبول الجبة والزواج بالغول	الغولة	انضمام الفتاة إلى العالم الآخر الخلود

الجدول(5): جدول تشكيل العلاقات البنوية والأفعال الأساسية:

العلاقات موطن الحكاية	توافقية	تضادية	فعل تهيئ	فعل تأزيم	فعل تشكيل	فعل حل
اليونان	الأميرة أبسخي والإله إرس	أبسخي وإرس الأخوات أفرو ديتي	التوجيه بالرأي	إشعال القنديل واختفاء الزوج	اختبارات عقابية شاقة	زفاف أبسخي من إرس
منطقة بني ورثيلان (الجزائر)	الفتاة والغول	الفتاة والغول الأخوات والغولة	التوجيه بالرأي	إشعال المصباح واختفاء الغول	اختبارات شاقة	التحاق الفتاة بالزوج

تحليل الجداول: يشكل محتوى الجداول السابقة مجموع العلاقات والعناصر المشتركة بين الحكايتين والتي من خلالها يمكن استنتاج مايلي:

*التواصل التاريخي المشترك بين شعوب حوض المتوسط سواء عن طريق التجارة أو الحروب الفينيقية والسيطرة الرومانية لما يزيد عن 6 قرون.

*تماثل الجغرافية الطبيعية للشعوب الحاضنة للحكايتين (تضاريس، مناخ المتوسط، الطبيعة).

*تماثل القيم التي تناولتها الحكايتان كتفضيل نوع من القيم ورفض أخرى (حنين، وتوق البشرية إلى الخلود، والحياة الناعمة والهناء الأبدى، ورفض الموت والفناء كحقيقة مأساوية)

*تماثل في المضمون العام للحكايتين في الشخصيات والحادثة، والأدوار الرئيسية، والعقدة والحل).

*تماثل في الوظائف المحفزة الباثة لأحداث الحكايتين وتشكلهما (النقص، المنع، الخرق، نوع العقاب، الجزاء).

*تماثل في الأفعال المسندة لشخصيات الحكايتين (طريقة الزواج، كيفية اكتشاف الزوج، كيفية إفساد الزواج، طريقة الاختفاء، أسلوب معاقبة الفتاة، كيفية تلقيها المساعدة).

*تنوع في تحديد أسماء الشخصيات (الإله إرس والأميرة أبسخي والآلهة أفروديتي والأخوات والصديقات في الأسطورة اليونانية -أما في الحكاية المدروسة فوردت أسماء مغايرة وهي: الغولة، الغول، الفتاة، الأخوات)¹².

تؤكد هذه العناصر التي تم استنتاجها من خلال الجداول على أن الحكايتين أصل لحكاية واحدة، رغم اختلاف الثقافات الحاملة لهما، كما أن الأسطورة قد تحولت من الثوب المقدس إلى مجرد حكاية خرافية تتوشح المعنى الفلسفي من غير تلبس بالمعتقد الديني. وإذا ما تساءلنا عن كيفية حدوث هذا التحول والظروف التي أوجدته فإننا نسجل وجود الديانتين اليهودية والمسيحية في الجزائر زمن ما قبل الفتح الإسلامي. وعليه فإن الفعل الأسطوري وصراع الآلهة وتعددتها أمر قد حسم فيه حين تلقى المجتمع المحلي أصول الديانتين. وذلك إما عن طريق تواجد الفينيقيين في شمال إفريقيا وإما بتأثير حضارة اليونان والرومان. فالطابع الأسطوري إذن اختفى حين دخلت الديانتان موطن البرابرة، وإجابتهما عن كثير من تساؤلات المتعلقة بقضية المعتقد. كما ساهمت

بشكل حاسم تعاليم الدين الإسلامي في توحيد الألوهية في أوساط البربر وذلك عند مجيء الفاتحين المسلمين برسالة التوحيد. ولذلك فإننا نرى أن تحول الأسطورة إلى حكاية خرافية مسألة طبيعية طالما تغيرت فلسفة المجتمع الاعتقادية ودخل عامل ديني جديد اكتسح الموروث الثقافي القديم. وقد أكد "فلاديمير بروب" هذا الاحتمال بقوله " إن أقدم الأساطير تكوّن المجال الذي تملك فيه الحكايات الشعبية أصلها البعيد" ¹³ غير أنها حسبته قد "خبت الاستعمالات الدنيوية والمعتقدات الدينية وصار ما تبقى منها حكاية شعبية" ¹⁴ فالأسطورة من وجهة نظر هذه أسبق من الحكاية الخرافية كما أن للأسطورة شخوصا مقدسة آلهاتية إن صح هذا التعبير، ثم تحولت هذه الشخصيات الدينية الأسطورية إلى شخوص حيوانية إلا أنها شحنت بصفات ومظاهر سلوكية آدمية. وهي المرحلة الأخيرة لها. وعليه فقد احتفظت الحكاية موضوع الدراسة بالإطار العام للأسطورة ولكنها خلعت عنها الثوب المقدس فلم يعد للآلهة ذكر أو اعتقاد. وصار "عصفور الهوى" ومعشوقته يرمزان إلى الخصب والنماء والبعث والحياة من جديد الشيء الذي يثبت الأصل السامي المنشأ للأسطورة، لأن اليونانيين "يرفضون فكرة البعث وعودة الحياة من جديد، بل إنهم ينفرون من هذه الفكرة ويجعلونها ضربا من الجهالة" ¹⁵.

الهوامش:

*عصفور المطر

1- Emile Dermenghem, Revue Africaine « Amour et Psyché » dans le folklore du Nord Africaine, Société historique Algérienne 1945, p48

2- لوكيوس أبوليوس المدوري، تحولات الجحش الذهبي، ترجمة علي فهمي خشيم، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، 1984، ص. 9.

3- الدكتور فؤاد جرجي بر بارة، الأسطورة اليونانية، مطابع وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، سوريا، 1966، ص. 171.

4- الدكتور بديع محمد جمعة، أسطورة فينوي وأدونيس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1981، ص. 13.

5- ينظر المرجع السابق، ص ص 14-15.

6- المرجع السابق ص 15.

7- الدكتور، بديع محمد جمعة، أسطورة فينوس وأدونيس،....، ص. 37، وكذلك ينظر أندريه إيمار وجانين أبوايه، تاريخ الحضارات

العام، م 1، ترجمة فريدم، داغر، فؤاد، ج. أبو ربحان، منشورات عويدات،

بيروت، باريس، ط 2، 1981، ص ص 91-92.

8- للاطلاع أكثر على هذه الأسطورة، ينظر الشاعر الروماني أوفيد، كتاب مسخ الكائنات، ترجمة ثروة عكاشة الهيئة المصرية العامة للكتاب. 1971.

9- الراوية: أمزال-ن

* أعطني النار .

** أهلك سبب شقائك .

*** مناديل تغطي شعر رأس المرأة .

**** معناه: كلامك يحلو كحلوة التفاح .

10- سمير المرزوقي، وجميل شاكر. مدخل إلى نظرية القصة، الدار التونسية للنشر، 1985. ص 149

- 11- شريفة جوادي، الدراسة النفسية للحكاية الموجهة للطفل، رسالة ماجستير، مخطوط معهد الثقافة الشعبية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر 2000 ص. 163
- 12- ينظر محمد ولد أحظانا، مقال حول مؤشرات التواصل في التراث الشعبي العربي، المجلة العربية للثقافية، نشر المنظمة العربية للتربي والثقافة والعلوم، السنة 18 العدد 36 مارس 1999 ص 249 زوما بعدها.
- 13- كلود ليفي ستروس وفلاديمير بروب. مساجلة بصدد علم تشكل الحكاية، ترجمة محمد معتصم، ط1. دار قرطبة للطباعة والنشر، الدار البيضاء. المغرب. 1988، ص. 42.
- 14- المرجع نفسه. ص. 42.
- 15- الدكتور بديع محمد جمعة، المرجع السابق، ص 34.